عنوان البحث:

معالم حضارة الحرمين الشريفين في ضوء الهدايات القرآنية (دراسة تحليلية)

اسم الباحث/ـة

أ.د/ رضوان جمال يوسف الأطرش

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

حضارة الحرمين الشريفين، المتمثلة جغرافياً في مكة المكرمة والمدينة المنورة، تشكل جوهر العالم الإسلامي ومحور إيمان المسلمين. وأساس هاته الحضارة هو العمل للدنيا والآخرة في نفس الوقت، وهي في تصوري معادلة متوازنة ومنظومة غير متنافرة، قال بها ابن مسعود، وابن عمر، وابن عمرو بن العاص رضي الله عنهم منذ زمن بعيد: "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا"(١)

وفي رواية احرث، وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾[الشورى: ٢٠].

وصدق الله حين قال: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

هذه هي وسطية الإسلام في الحياة، قال تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ [البقرة: ١٤٣]. والحياة المشروعة في الدنيا أن تعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، ولآخرتك كأنك تموت غداً، ولقد نعى الله على قوم حولوا دنياهم إلى متع وشهوات وماديات، ونعى على قوم حولوا دنياهم إلى رهبانية ابتدعوها ما كتبها الله عليهم(٢).

وعند النظر في مقاصد خلق الإنسان نجد أن **من أهم هذه المقاصد:**

-**بناء الدنيا بشكل شمولي:** عمران مادي وعمران روحي، فهذا المساران هما ما قامت عليهما حضارة الحرمين الشريفين. فالعمار الروحي منبثق من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

والعمار المادي منبثق من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

يقول وِل ديورَانت: الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وإنما **تتألف الحضارة من عناصر أربعة:** الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون(٣).

من ناحية أخرى، تتجلى معالم حضارة الحرمين الشريفين ليس فقط في الجغرافيا والتاريخ الإسلامي والمكانة الروحية والدينية والاعتبارية، ولكن أيضًا في الرسائل والهدايات القرآنية التي نوهت عن هذين المكانين الطاهرين، ما جعلهما مركزًا روحيًا وحضاريًا يشع بالعلم والمعرفة والتسامح عبر العصور.

---

(١) قال الألباني: لا يصح مرفوعاً، إسناده منقطع، أي: ليس صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم. انظر: الضعيفة، ج١، ص٢٠. وقد أورده ابن حبان في ثقات أتباع التابعين، ج٧، ص١٤٨،

(٢) موسى شاهين لاشين، فتح المنعم شرح صحيح مسلم، (القاهرة – بيروت: دار الشروق، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م) ج٤، ص١٢٢.

(٣) وِل ديورَانت(ويليام جيمس ديورَانت) (المتوفى: ١٩٨١ م)، قصة الحضارة، تقديم: محي الدين صابر، ترجمة: زكي نجيب محمود وآخرين، (بيروت: دار الجيل، تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، د.ط، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ج١، ص٣.

وقد جاء في تفسير مجاهد في تفسير قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٣٠] قَالَ: "الْحُرُمَةُ: مَكَّةُ، وَالْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ، وَمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنْ مَعَاصِيهِ"(١).

ولقد كانت محل بيئة وحدوية للأمة كلها، فكلما انحرف مسار الأمة عن مسار الوحدة وانهمكت في الصراعات البينية وابتعدت عن السباق الحضاري، جاءت إلى مكة والمدينة من خلال حج وعمرة، لتنتقل بعد ذلك من التفتيت الصراعي البيني والخوف إلى الوحدة الكلية الجامعة في الفكر والدين والاجتماع والأمن والأمان، والسلامة، والسكينة، والطمأنينة. وهذا في نظري عين الحضارة التي ترفعها راية حضارة الحرمين الشريفين.

ومن أهم الشخصيات التي تناولت قضية العمران والحضارة كظاهريتين بشريتين بشكل متكامل:

ابن خلدون من القدامى، ومن المعاصرين: مالك بن نبي والمفكر البحريني: محمد جابر الأنصاري(٢).

ومن الأجانب الذين كتبوا في الحضارة: وِل ديورَانت = ويليام جيمس ديورَانت (١٩٨١م).

والعجيب أن ابن خلدون قال في مقدمته: إن المناخ والبيئة والتضاريس الجغرافية له بالغ الأثر في بناء الدول والحضارات، فلا يمكن أن تبنى حضارة في المناطق الحارة، وغالباً ما تكون في المناطق الرطبة، لأنها أسهل لعمل الصناعات والحرف.

أما ول ديورانت فيقول: تبدأ الحضارة حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أَمِنَ الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها(٣).

والحقيقة أن هذا الرجل صدق في زعمه ذاك، وإذا أردنا تطبيق ذلك على بلاد الحرمين، فقد وصفها الله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقال سبحانه:﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧]. وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا ﴾ [القصص: ٥٧]، وقال سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، حتى إن الله تعالى أمَّن الطير والشجر، وحرم مجرد الجدال فيه (٤).

---

(١) أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي (ت ١٠٤هـ)، تفسير مجاهد، تحقيق: محمد عبد السلام أبو النيل، (مصر: دار الفكر الإسلامي الحديثة، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م) ص٤٨٠.

(٢) أحمد التلاوي، أسس الحضارة والعمران في القرآن الكريم – مع تصحيح لمفاهيم خاطئة في فضائنا الإسلامي، (الزقازيق: دار مسار للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٤١هت/٢٠٢٠م) ص٣٢.

(٣) وِل ديورَانت = ويليام جيمس ديورَانت، قصة الحضارة، ج١، ص٣.

(٤)شحاتة محمد صقر، جهود علماء الأزهر في بيان حقيقة دين الشيعة، راجعه وقدم له: محمد بكر إسماعيل حبيب، (الإسكندرية: الدار السلفية، د.ط، د.ت) ص٥٨.

وقال الرازي: إن من دخله للنسك تقرباً إلى الله تعالى كان آمناً من النار يوم القيامة، وذكر حديثاً للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم: «من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمنا». وهو غير صحيح.

ولكن الحديث الصحيح الذي ورد في صحيح ابن ماجة: مَنِ استطاعَ منكُم أن يَموتَ بالمدينةِ، فليفعَل، فإنِّي أشهدُ لمن ماتَ بِها (١).

ورواه أحمد في مسنده بلفظ: عن نافع عن ابن عمر أن النبي –صلى الله عليه وسلم –قال: «من استطاع أن يموت بالمدينة فليفعل، فإني أشْفَعُ لمن مات بها»(٢).

الأهمية العلمية لهذا البحث: هذا البحث حول حضارة الحرمين الشريفين يعكس أهمية علمية كبيرة **يمكن تلخيصها في النقاط التالية:**

١. **تعزيز فهم الجغرافيا الروحية والدينية:**

البحث يساهم في تعميق الفهم للجغرافيا الروحية والدينية لمكة المكرمة والمدينة المنورة، وكيفية تأثيرهما في تشكيل الهوية الإسلامية وتوحيد المسلمين حول العالم.

٢. **إبراز الدور التاريخي والثقافي والحضاري للحرمين الشريفين:** يبرز البحث الدور التاريخي للحرمين الشريفين في نشر الإسلام وتأسيس الحضارة الإسلامية، بالإضافة إلى أهميتهما كمراكز للعلم والفقه والثقافة عبر العصور.

٣. **تأثير الهدايات القرآنية على العمران والمعمار في الحرمين الشريفين:** يُظهر البحث كيف أن التوجيهات القرآنية قد شكلت معالم التخطيط العمراني والعمارة في الحرمين، مما يؤكد على العلاقة بين الدين والفن المعماري الإسلامي.

٤. **التطور العلمي والتعليمي وأثرهما على مدن المملكة:** يُسلط البحث الضوء على كيفية تطور العلم والتعليم في الحرمين، بما في ذلك تأسيس المدارس والجامعات التي تجمع بين العلوم الدينية والعصرية، وكيف أسهمت هذه المؤسسات في نشر المعرفة.

٥. **مواجهة التحديات المعاصرة:** يناقش البحث التحديات الحديثة التي تواجه الحرمين مع استمرار التوسع العمراني والتكنولوجي، وكيف يتم التعامل مع هذه التحديات بما يتوافق مع المبادئ الإسلامية والحفاظ على الطابع الديني والتاريخي للمواقع.

الأهمية العملية والتطبيقية لدراسة مثل البحوث:

- تحسين تجربة الحج والعمرة: الفهم العميق للأبعاد التاريخية والعمرانية للحرمين الشريفين يمكن أن يسهم في تطوير وتحسين التجربة الروحية والفعالية اللوجستية للحج والعمرة. يتضمن ذلك التخطيط الأفضل للتوسعات العمرانية واستخدام التكنولوجيا لتسهيل أداء المناسك بأمان ويسر.

(١) رواه عبد الله بن عمر، وانظر: الألباني، صحيح ابن ماجة، رقم الحديث: ٢٥٤٣.

(٢) الإمام أحمد بن حنبل، المسند، ج٥، ص٦٦. رقم الحديث: ٥٤٣٧. حكم الألباني: صحيح.

- تعزيز التعليم والبحث الأكاديمي: البحث في تاريخ وعلوم الحرمين يعزز من مستوى التعليم الديني والعام، حيث يمكن إدراج هذه المعارف في المناهج الدراسية بالجامعات والمعاهد، وتشجيع البحث الأكاديمي المتعلق بالفقه الإسلامي وتاريخ الإسلام.
- الحفاظ على التراث والهوية الإسلامية: فهم الدور التاريخي والحضاري للحرمين يساهم في الحفاظ على التراث الإسلامي وتعزيز الهوية الإسلامية، خاصة في ظل التحديات المعاصرة التي تواجه الثقافة والدين.
- تعزيز الوحدة والتفاهم بين المسلمين: الوعي بالأهمية الروحية والتاريخية للحرمين يمكن أن يسهم في تعزيز الوحدة بين المسلمين من مختلف الثقافات والأعراق، حيث يتشاركون في الإعجاب والاحترام لهذه المواقع المقدسة.
- تطوير السياحة الدينية والثقافية: الاستفادة من البحوث المتعلقة بالحرمين الشريفين لتطوير السياحة الدينية والثقافية بطريقة تحترم القيم الدينية وتعمق الفهم الثقافي. يمكن أن يسهم ذلك في تعزيز الاقتصاد المحلي وتقديم تجربة ثقافية غنية للزائرين من مختلف أنحاء العالم.

تحديد المصطلحات المهمة في البحث:

الحضارة لغة: جاءت كلمة الحضارة من الفعل حضر، وهي تعني: الإقامة في الحضر أو السكون فيه، أما في اللغة العربية فهي كلمة مشتقة من الفعل حضر، يقال: حضر الرجل حضوراً، والحضور ضد الغيبة ومنه قوله تعالى: ﴿حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[البقرة: ١٩٦] هم أهل مكة وأهل الحرم والمواقيت.

وأحضره غيره واستحضرته، وهو من الحضور، وحاضرته شاهدته. ورجل حَضِرٌ: لا يصلح للسفر. والمحْتَضِرُ: الذي يأتي الحَضَرَ، وهو خلاف البادي. ويقال: الحضارة هي القرى والأرياف والمنازل المسكونة، وبالتالي فهي خلاف البدو والبداوة والبادية. ومنه قوله تعالى: ﴿وأعوذ بِكَ رَبِّ أن يَحْضُرونِ﴾[المؤمنون: ٩٨] أي أن تصيبني الشياطين بسوء(١). الحضر: خلاف البدو، وهو بدوي يتحضر. وقال تعالى: كل شرب محتضر: أي يحضره مستحقوه (٢).

وقال سبحانه: ﴿واسألهم عَن الْقَرْيَة الَّتِي كَانَت حَاضِرَة الْبَحْر﴾ [الأعراف: ١٦٣]، أي قريبة من البحر، وقال سبحانه: ﴿إِلَّا أَن تكون تِجَارَة حَاضِرَة تديرونها بَيْنكُم﴾ [البقرة: ٢٨٢] والتقدير: إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه إلا أن يكون الأجل قريباً.

وجاء في معجم اللغة العربية المعاصرة: حضَّر القوم: أي زودهم بأسباب الحضارة والرقي والتقدم. وعليه، فإن الحضارة لغة: هي الإقامة في الحضر أي المدن.

---

(١).أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، (بيروت: دار العلم للملايين، ط٤، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ج٢، ص٦٣٤.

(٢). مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، ج١، ص١٨١.

الحضارة اصطلاحاً: مجموعة المظاهر العلميّة، والأدبيّة، والفنيّة، وكذلك الاجتماعيّة، الموجودة في المجتمع، **ومن أهم مستلزماتها:**

الاستقرار والتعاون، والكتابة. وقد عرفها ابن خلدون: هي نمط من الحياة المستقرة ينشئ القرى والأمصار، ويضفى على حياة أصحابه فنوناً منتظمة العيش والعمل.التعريف بقريش: إن المنهج العلمي التاريخي الصحيح يقتضي أن ترجع إلى الأصول الأولى في كل شيء (١).

وبالتالي لا بد أن نرجع لقبيلة قريش، وقريش يرجع نسبها إلى قريش بن بدر بن يخلد بن النضر بن كنانة، من عدنان، جاهلي من أهل مكة، كان دليل بني كنانة في تجاراتهم، فإذا أقبل في القافلة يقال: قدمت عير قريش، فغلب لفظ (قريش) على من كان في عهده من بني النضر بن كنانة، والقرشيون قسمان: (قريش البطاح) وهم ولد قصي بن كلاب وبنو كعب بن لؤي، و (قريش الظواهر) وهم من سواهم وقد تفرع منهما بطون كثيرة (٢). وكانت معايير الشرف في القبائل عند العرب في قريش: قِدَم الميلاد(٣)، وثوق النسب(٤)، وكثرة العدد(٥)، وكثرة الزعماء (٦)، وكثرة الحكماء (٧)، والفرسان، والشعراء، وكثرة وجوه الخير (٨)، وقلة وجوه الشرّ (٩)، ومظاهر العزَّة؛ كعدم الاسترقاق (١٠)، والنصر في المعارك، وقلَّة اللجوء إلى القبائل الأخرى (١١)، ورقي الطباع ودماثة الخلق.

---

(١). أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب، تحقيق: عبد الله شاكر محمد الجنيدي، (المدينة المنورة: عمادة البحث العلمي، الجامعة الإسلامية، ط١، ١٤١٣هـ) ص١١.

(٢) عن الصحابي عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، أبو العباس (ت ٦٨هـ) رضي الله عنهما، غريب القرآن من شعر العرب (مسائل نافع بن الأزرق لعبد الله بن عباس – رضي الله عنه وعن أبيه) (تاريخ النشر: ١٤٣١هـ) ص١٠٧.

(٣) فهي من أقدمهم نسبًا: نسبهم مرفوع وبلا خلاف إلى عدنان، ثم هو يصل إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. أي أنهم أصل العرب المستعربة. يسبقهم بعض عرب اليمن، كالجرهميين، والحميريين، وغيرهم.

(٤) وثوق النسب: لا خلاف بين علماء النسب على وضوح شجرة نسب قريش.

(٥) ومن أكثرهم عددًا: قال كفار قريش في تحديهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم: {وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} [سبأ: ٣٥]،

(٦) ومنها يُختار زعماء العشائر في الفروع القريبة منها.

(٧) وفيها الحكماء، والفرسان، وأصحاب البيان.

(٨) وفيها الخير الكثير: وقد حبَّب الله لهم رعاية الحجيج وإطعامهم مع عدم معرفتهم لذواتهم.

(٩) ولا يُنسب إليها شرٌّ: فلا توجد مثالب في تاريخها تُنْسَب إليها، ولم تقع –كقبيلة– تحت نير هجاء الشعراء، ولو بالباطل.

(١٠)وهي من القبائل العزيزة التي لم يقع أيٌّ من أفرادها في الأسر: وهذه قبائل معدودة في العرب؛ منها الأوس، والخزرج، وثقيف، وعامر بن صعصعة، وخزاعة.

(١١) وهي التي تلجأ القبائل إلى بطونها، ولا يلجأ منها أحدٌ إلى غيرها: ويُسَمَّى هذا اللاجئ مُلْصَقًا. يقول الجاحظ وهو يعدِّد فضائل قريش: "فمن ذلك أنا لم نر قريشيًا انتسب إلى قبيلة من قبائل العرب، وقد رأينا في قبائل العرب الأشراف رجالًا –إلى الساعة– ينتسبون في قريش، كنحو الذي وجدنا في بني مرة بن عوف، والذي وجدنا من ذلك في بني سليم، وفي خزاعة، وفي قبائل شريفة". وقد عرفنا عددًا من الصحابة الكبار كانوا من قبائل كبيرة، ولكنهم تركوا قبائلهم لسبب أو آخر وانتسبوا

ومن جهة أخرى، فإن قريش كانت من القبائل التي تشترط على مَنْ أراد أن يتزوَّج منها أن يكون ولد القرشية على دينها: وليس على دين قبيلة الرجل الزوج، بينما يتزوَّج رجال قريش من عامة القبائل دون شروط، وكانت قريش تعطي بعض المزايا في الحجِّ لبعض القبائل التي قبلت أن "تتحمَّس" أي تتشدَّد في الدين، فيصيرون من "الحُمْسِ" (١) أتباع الحمس الرئيسيين، وهم قريش!

وكان العرب يعتبرونها أرقى البلاد، وأفضل الطباع: وليس فيهم غلظة الأعراب، ولا جفاء البدو، وليس هذا مرتبطًا بالمال والثروة، ولكن بالعادات والتقاليد.

ومثال ذلك ثلاثة أمور:

الأول: الطعام ففي الطبراني وغيره عن ابْنِ عُمَرَ أن النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال عن الضَّبِّ: «كُلُوهُ لَا بَأْسَ بِهِ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ مِنْ طَعَامِ قَوْمِي» (٢).

الثاني: العطاء، فكانوا يعطون الشعراء كما تعطي الملوك، ولذا فهم أكثر العرب تقديرًا لقيمة الكلمة.

الثالث: وأد البنات، ولم يحدث مطلقًا في قريش، وغير ذلك من الصفات الفريدة الكثير.

ومن ميزات مكة وقريش الحضارية: **كثرة المال:** فكثرة المال معروفة في قريش: وهو كثير فيها على مستوى الأفراد، وكذلك على مستوى القبيلة ككل، والآيات التي تتحدَّث عن فخر كفار قريش بأموالهم كثيرة، وهذا يدلُّ على أن زيادة المال عندهم فريدة ولافتة. ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]، وقال: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾[الهمزة: ٣]، وقال في حقِّ أبي لهب: ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ} [المسد: ٢]، وقال: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ [القلم: ١٤].

كانت قريش تتميز على غيرها دينياً: لم يكن مجرَّد تميز بأصنام كهبل، وإساف، ونائلة، ولكن تميُّز بأمر لا يتكرَّر في غير قريش، وهو رعاية البيت الحرام. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا} [القصص: ٥٧]، وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

قال فخر الدين الرازي: أجمع المفسرون على أن ذلك البلد هي مكة، واعلم أن فضل مكة معروف، فإن الله تعالى جعلها حرما آمنا، فقال في المسجد الذي فيها ﴿ومن دخله كان آمنا﴾ [آل عمران:

لقريش؛ مثل حاطب بن أبي بلتعة اللخمي، وكان ينتسب إلى بني أسد، ومثل الأخنس بن شريق، وهو من ثقيف، وانتسب إلى بني زهرة، ومثل عبد الله بن مسعود الهُذَلِي، وانتسب إلى بني زهرة كذلك، وياسر بن عامر العنْسي من بني عنْس المذحجية اليمنية (والد عمار بن ياسر)، وانتسب إلى بني مخزوم، وغيرهم.

(١) الحمس أو الأحماس جمع الأحمس، ومفرده الأحمس: الشجاع: وهو لقب قريش ومن ولدت قريش، وكنانة، وجديلة قيس، ومن تابعهم في الجاهلية، سموا بذلك لتحمسهم في دينهم، أي تشددوا، وكانوا يقفون بمزدلفة ولا يقفون بعرفة، ويقولون نحن أهل الله فلا نخرج من الحرم، وكانوا لا يدخلون البيوت من أبوابها وهم محرمون. انظر: ابن منظور، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، ط٣، ١٤١٤هـ)، ج٦، ص٥٨.

(٢) الطبراني في المعجم الكبير(١٩٣٤١).

٩٧] .وجعل ذلك المسجد قبلة لأهل المشرق والمغرب، فقال:﴿ وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ [البقرة: ١٤٤] وشرف مقام إبراهيم بقوله: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ [البقرة: ١٢٥] وأمر الناس بحج ذلك البيت فقال: ﴿ولله على الناس حج البيت﴾ [آل عمران: ٩٧] وقال في البيت: ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا﴾ [البقرة: ١٢٥] وقال: ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا﴾ [الحج: ٢٦] وقال: ﴿وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾ [الحج: ٢٧] وحرم فيه الصيد، وجعل البيت المعمور بإزائه، ودحيت الدنيا من تحته، فهذه الفضائل وأكثر منها لما اجتمعت في مكة لا جرم أقسم الله تعالى بها (١).

فقبيلة قريش تكاد تكون هي القبيلة الوحيدة التي تجتمع فيها كلُّ هذه العوامل، هذه المزايا جعلت قريشًا في مكانة لا تقبل المنافسة من ناحية الشرف مع غيرها.

مميزات الحضارة الإسلامية:

تميزت الحضارة الإسلامية التي بلغت أوجهها في القرن الرابع الهجرين عن غيرها من حضارات العالم بأمرين:

الأول: أنها حضارة تشمل حقولاً متنوعة منها شريعة مرنة متطورة، قوامها العدل ومصالح العباد، ترسي قواعد الحرية والمساواة والشورى، وتمتد لتشمل العلوم المختلفة كالطب، والصيدلة، والزراعة، والكيمياء والفلك، والرياضيات، والعمارة وغير ذلك كثير. بينما نجد الحضارة الرومانية مثلاً معروفة بقانون دخل التاريخ، مع عمارة فقدت وجودها. والحضارة اليونانية عرفت بالفلسفة والطب، ومثل ذلك بقية الحضارات.

الأمر الثاني: أنها الحضارة الوحيدة التي يُعرف تاريخ مولدها، أما الحضارات الأخرى فلا يَعْرِفُ أحدٌ بدايتها، فهي بدايات تمتد قروناً حتى يتم ظهورها.

أما الحضارة الإسلامية فقد ولدت في مكة المكرمة يوم بعث الله نبيه سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله أفضل الصلاة والتسليم، والتي تأسست على التوحيد والعدل والعمل الصالح والعلم وغيرها من المبادئ العظمية، والذي وضعه Michael H. Hart, في كتابه الشهير المائة العظماء من العالم:

The 100: A Ranking of the Most Influential Persons in History(1978)

ووضع النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ثم ترعرعت في المدينة المنورة، حيث أرسى الله قواعدها ومبادئها، ومنها انطلقت شمالاً وشرقاً وغرباً، واشتد عودها، فأصبحت باسقة أصلها ثابت في مكة والمدينة، وفروعها شملت معظم أرجاء المعمورة بمختلف أنواع العلوم والمعارف.

هنيئاً لكم أهلي وأحبابي يا من تنتمون إلى مكة المكرمة، فهي مدينة متمكنة الحضارة جليلة القدر، والتي قال الله عز وجل فيها: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾،

(١) فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، ج٣١، ص١٦٤.

فإذا نحن البعيدين عن مكة نحبها بالقلب والعقل والوجدان، فكيف أنتم تحبونها. إنها بلد عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وهو الذي أول من جهر بقراءة القرآن بمكة (١).

ويكفي مكة تعظيماً وإجلالاً وجود المسجد الحرام فيها، والذي قال فيه النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم "صلاة في المسجد الحرام بمئة ألف صلاة، وصلاة في مسجدي بألف صلاة وصلاة في المسجد الأقصى بخمسمائة صلاة ".

يكفي المدينة المنورة أن الله تعالى بعظمته قال فيها: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾، فهي صاحبة الفضل؛لأن العهد النبوي ترعرع فيها، وازدادت عراقتها ومحاسنها بالخلافة الراشدة، فهي صاحبة الفضل على العالم كله. فهي أصل حضارة الإسلام، ويكفي أنها مدينة الهجرة النبوية.

فهي المدينة التي هاجر إليها النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) في عام ٦٢٢ ميلاديًا.

ومنذ ذلك التاريخ وهو يمثل لحظة فارقة في التاريخ الإنساني والإسلامي، إذ به بدأ التقويم الإسلامي، فهي ليست مجرد هجرية بدنية، ولكنه الحدث الأعظم في تاريخ الإسلام والدعوة الإسلامية، حيث انتقل المجتمع المسلم كله من مكة العامرة إلى المدينة المنورة.

فهي المدينة التي أقيم فيها أول دولة إسلامية، والتي تأسس فيها الحقوق والمسؤوليات، بغض النظر عن ديانة السكان فيها، حين طبقت فيها وتجسدت القيم الإنسانية والعدالة المساواة.

كما أنها كانت بلد كثير من الغزوات كمعركة أحد والخندق، ويكفيها فخراً مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث بناه النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بنفسه، وتطور بناؤه حتى أصبح منارة دينية إنسانية وروحية عميقة، كما أنها المدينة التي ضرب بها المثل على التماسك الاجتماعي والأخوة العظيمة.

فهي مدينة ذات ثقافة روحية، وفيها اختار رسول الله صلى الله عليه سلم أن يدفن فيها، ولهذا يجد الحجاج راحة نفسية عظيمة في روضتها والتي تعد قطعة من الجنة قائمة على الأرض.

كما أن المدينة المنورة مدينة التأسيس التاريخي للحضارة الإسلامية من خلال أول مسجد أقيم فيها على الإطلاق، وهو مسجد قباء، ومسجد القبلتين، حيث أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغير اتجاه القبلة من القدس الشريف إلى مكة حرسها الله.

(١) عن الصحابي عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، أبو العباس (ت ٦٨هـ) – رضي الله عنهما، غريب القرآن من شعر العرب (مسائل نافع بن الأزرق لعبد الله بن عباس – رضي الله عنه وعن أبيه) ص٥٤-٥٥.

معالم الحضارة في الحرمين الشريفين:

المعلم الأول: المكانة الدينية للحرمين ساهمت في بناء الحضارة الإنسانية الأعظم في التاريخ:

الأهمية الجغرافية والدينية للحرمين الشريفين

- **مكة المكرمة:** تُعد مكة المركز الروحي للإسلام، حيث تحتوي على الكعبة، التي وصفها القرآن بأنها أول بيت وضع للناس [آل عمران:٩٦]. قال الرازي: ظاهر الآية يدل على أنه أول بيت وضع للناس، وكونه موضوعاً للناس يقتضي كونه مشتركاً فيه بين جميع الناس، فأما سائر البيوت فيكون كل واحد منها مختصاً بواحد من الناس فلا يكون شيء من البيوت موضوعاً للناس، وكون البيت مشتركاً فيه بين كل الناس، لا يحصل إلا إذا كان البيت موضوعاً للطاعات والعبادات وقبلة للخلق، فدل قوله تعالى:(إن أول بيت وضع للناس) على أن هذا البيت وضعه الله موضعا للطاعات والخيرات والعبادات فيدخل فيه كون هذا البيت قبلة للصلوات، وموضعا للحج، ومكانا يزداد ثواب العبادات والطاعات فيه (١).

من جهة أخرى، إن مكة المكرمة حرسها الله وزادها تشريفاً، التي تحتضن الكعبة، هي أقدس الأماكن في الإسلام، وفي نفس الوقت فإن الكعبة تعد قبلة المسلمين في صلاتهم وتعتبر مركزًا روحيًا وإلهيًا في حياة المسلمين.

- **أما المدينة المنورة:** على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التسليمات، والتي تحتضن المسجد النبوي، تمثل موقعًا رئيسيًا في حياة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وملتقى المسلمين الأوائل.

وبالتالي فإن هذين الموقعين يشكلان محورًا مهمًا في الدين الإسلامي،

ويجذبان ملايين المسلمين للحج والعمرة. وعند الحديث عن الحضارة في الغرب، نجد أن الحضارة فيه قد سادت عليه الروح المادية وحددت دائرة العلم فيها بدائرةٍ مادية.

وحينما نشأ ملاحدة القرن الثامن عشر والتاسع عشر، موَّهوا على الناس، فصوروا لهم الدائرة المادية على أنها الدائرة الثابتة التي تتكشف فيه الحقائق، وأما الحديث عن عالم الغيب فهو بالنسبة إليهم عالم زائف، كله سراب خادع (٢).

النتيجة لهذا الطغيان المادي: الحرب العالمية الأولى، والحرب العالمية الثانية، والتي كانت من نتائجهما نثر ألوان الشقاء على الكون كله. على عكس حضارة الحرمين الشريفين، فإنها رسالة إنسانية عالمية، وهي رسالة الروح والإيمان والأخلاق والعلم والفهم.

---

(١) أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٤٢٠هـ)، ج٨، ص٢٩٥.

(٢) انظر: المقدمة: عبد الْحَلِيم مَحْمُود طه عبد الْبَاقِي سرُور، والكتاب مؤلفه: أبو بكر محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري الحنفي، التعرف لمذهب أهل التصوف، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٣٤هـ) ص١٦.

إنها حضارة قامت على أساس بناء الإنسان الفاضل، هذه الحضارة الفكرية الإسلامية ارتبطت بالوحي الذي أنزله الله على قلب النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم في مكة زادها الله تشريفاً، لهداية البشر كلهم على السواء.

وكانت السمة الغالبة على هذه الحضارة أنها حضارة دنيوية مرتبطة بالوحي.

والقرآن يذكر مكة بعدة أسماء مثل بكة وأم القرى، مؤكدًا مكانتها المركزية وقدسيتها.

الكعبة المشرفة: الكعبة هي قبلة المسلمين في صلواتهم، وقد أشير إليها في القرآن الكريم كأول بيت وضع للناس (سورة آل عمران، آية ٩٦). هذا يعكس الأهمية المركزية للكعبة كرمز لوحدة المسلمين.

البيت الحرام والحج: الله تعالى يأمر المسلمين بأداء فريضة الحج إلى البيت الحرام (سورة آل عمران، آية ٩٧)، ما يجعل مكة مركزًا لتجمع المسلمين من كافة أنحاء العالم.

آيات القرآن المكي: مكة هي موقع نزول أغلب آيات القرآن، وهي تحمل في طياتها الكثير من الرسائل التي تعزز من مكانتها الروحية والدينية.

المدينة المنورة: وصفها القرآن بأنها طيبة، وهي المكان الذي هاجر إليه النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأصبحت مركزًا لنشر رسالة الإسلام.

الهجرة وبناء المسجد النبوي تمت الإشارة إليها في سور مختلفة تشيد بمناقب هذه المدينة وأهلها.

الهجرة وبناء المجتمع المسلم: المدينة المنورة كانت مسرحًا للهجرة النبوية، وهي الحدث الذي يمثل تحولًا كبيرًا في تاريخ الإسلام، كما ذُكر في القرآن (سورة الحشر). الهجرة أسست لبناء المجتمع المسلم الأول والدولة الإسلامية.

المسجد النبوي: بُني المسجد النبوي في المدينة، وهو ثاني أقدس موقع في الإسلام. القرآن نوه عن أهمية الصلاة في هذا المسجد وفضلها (سورة التوبة، آية ١٠٨).

مركز للتعليم والرسالة: المدينة كانت المركز الذي منه انتشر العلم والفقه الإسلامي، وفيها تلقى الصحابة تعليمهم وتدريبهم مباشرة على يد النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

الوظائف الروحية والمعرفية:

كلا الحرمين الشريفين يحملان وظائف روحية ومعرفية وفقًا للهدايات القرآنية. مكة المكرمة تجسد الوحدة والسلام، وهي نقطة التجمع للمسلمين في أداء فريضة الحج، التي تعد ركنًا من أركان الإسلام. في المقابل، المدينة المنورة تمثل النموذج العملي لتطبيق تعاليم الإسلام وبناء مجتمع مبني على مبادئ العدالة والإخاء.

وَقَالَ صلى الله عليه وسلم" من اسْتَطَاعَ أَن يَمُوت فِي أحد الْحَرَمَيْنِ فليمت، فَإِنِّي أول من أشفع لَهُ، وَكَانَ يَوْم الْقِيَامَة آمنا من عَذَاب اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا حِسَاب عَلَيْهِ وَلَا عَذَاب".

فقدسية المكان والزمان في الحرمين، وعلى إثر الإيمان بهذا المعلم تمت التوسعات العمرانية والجغرافية عبر التاريخ، فقد شهدت مكة والمدينة توسعات كبيرة تحت رعاية الخلفاء والملوك المسلمين؛ بدءًا من عهد الخليفة عمر بن الخطاب وحتى العصر الحديث.

كل توسعة كانت تهدف إلى استيعاب الأعداد المتزايدة من الحجاج وتحسين تجربة العبادة.

الهداية القرآنية للحفاظ على قدسية هذه الأماكن أثرت مباشرة في كيفية التخطيط العمراني والعمارة.

الفن والعمارة: العمارة الإسلامية في الحرمين تعكس الأنماط الفنية والهندسية التي تطورت لتعبر عن الهوية الإسلامية، من الكعبة المشرفة إلى المسجد النبوي.

١. **التطور العمراني والمعماري:**

٢. **مكة المكرمة:**

التوسعات المعمارية: عبر التاريخ، التكنولوجيا الحديثة: في العصر الحديث، تم تجهيز الحرم المكي بأحدث التقنيات لضمان سلامة الحجاج وتسهيل أداء المناسك.

المعلم الثاني: حضارة الحرمين هي حضارة الأمن والأمان:

يقول ول ديورانت فيقول: تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق؛ لأنه إذا ما أَمِنَ الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها (١).

ومن قبل قال تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، ولهذه الآية نظائر:

منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥] وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] .

وقال الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام حين دعا ربه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥] وقال تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤].

والله عز وجل جعل الحرمين وبالذات البلد الحرام آمناً، وجعل فيه الخصب، مما يجعل الناس يتفرغون لطاعة الله، كما أنه تعالى جعله مثابة للناس، حيث مكنهم من الذهاب إليه،

وجعل الطرقات آمنة، والأقوات رخيصة، فإذا اجتمع مع كل ذلك رؤية المشاهد العظيمة ازداد الأمن وازدادت سبل التواصل في الطاعات لله عز وجل.

والمدقق يجد أن الخطاب القرآن ألحق الأمن بالبلد، والحقيقة أن المقصود أهلها، فهو مجاز، لأن الأمن والخوف لا يلحقان بالبلد، وإنما يلحقان بأهلها، كما قال تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي أهلها.

(١) وِل ديورَانت = ويليام جيمس ديورَانت، قصة الحضارة، ج١، ص٣.

ومن سبل دوام هذه الحضارة إن شاء الله، أن الله تعالى حفظها بالأمن الغذائي (١)، وآمنها من القحط؛ لأنه تعالى أسكن أهل الوادي بواد غير زرع قال تعالى: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وكذلك أَمَّن هذه الحضارة من الخسف والمسخ،

وثالثها: أمنها من القتل، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما بسندهما عن ابن عباس رضي الله عنهما،

قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: «لا هجرة، ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم، فانفروا» (٢)

وقال يوم فتح مكة: «إِنَّ هذا البَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَومَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَهو حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إلى يَومِ القِيَامَةِ، وإِنَّه لَمْ يَحِلَّ القِتَالُ فيه لأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لي إِلَّا سَاعَةً مِن نَهَارٍ، فَهو حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إلى يَومِ القِيَامَةِ، لا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ، وَلَا يَلْتَقِطُ إِلَّا مَن عَرَّفَهَا» (٣).

المعلم الثالث: حضارة الحرمين الشريفين حضارة العلم والمعرفة:

كانت الحرمين مركزين للعلم، حيث درس بهما العديد من العلماء المسلمين البارزين. الحديث النبوي والفقه والتفسير والحديث كلها علوم نمت وازدهرت في ظلال هذه المدن المباركة. من جهة أخرى، تمثل المدينة المنورة مركزًا لنشر العلم والفقه الإسلامي، حيث تلقى الصحابة تعليمهم مباشرة على يد النبي محمد صلى الله عليه وسلم. هذا يؤكد دورها الرئيسي في تعليم القرآن والسنة وتنمية الفقه الإسلامي.

المدارس العلمية في مكة والمدينة حرسهما الله:

أولاً: المدارس التفسيرية:

مدرسة التفسير في زمن التابعين في مكة: وسميت مدرسة مكة: وكان أستاذ هذه المدرسة ومؤسسها شيخ المفسرين وحبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

---

(١)التمتع بالرياض الغنَّاء والحدائق أو البساتين المتنوعة الأشجار والأثمار. بمعنى آخر: أن يتحقق الأمن الغذائي حينما تحقق الإمكانات المادية والاجتماعية والاقتصادية للحصول على أغذية كافية وسليمة ومغذية. وهناك أربع ركائز للأمن الغذائي: توافر الأغذية، وإمكانات الحصول عليها، واستخدامها، واستقرار الإمدادات منها.

(٢) الحديث أخرجه البخاري، انظر: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر (د.م: دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ)، ج٣، ص١٤. كتاب جزاء الصيد، باب: لا يحل القتال بمكة، رقم الحديث: ١٨٣٤.

(٣) الحديث أخرجه البخاري، انظر: ج٤، ص١٠٤. كتاب الجزية، باب إثم الغادر للبر والفاجر، رقم الحديث: ٣١٨٩.

المقصود بمدرسة التفسير في مكة: ما روي من نصوص تفسيرية مسندة كانت أو غير مسندة عن جهابذة أعلام هذه المدرسة أسهموا في تشكيلها بناءً ومساراً، وكذلك نصوص الذين تتلمذوا وجلسوا إلى شيوخها يأخذون من معينهم الفياض وزادهم المعرفي. قال فيهم ابن تيمية:" أعلم الناس بالتفسير أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد وعطاء وعكرمة وطاووس وسعيد بن جبير وغيرهم"(١).

وتتميز هذه المدرسة بأنها تتبنى المنهج اللغوي في تفسير القرآن، ولا عجب في ذلك، لأن أستاذها هو ابن عباس رضي الله عنهما، وهو الذي حفظ الشعر العربي، ومسائل نافع بن الأزرق، وأجوبة ابن عباس عليها، تدل على مدى تبحره في ذلك (٢).

ومن تلاميذ هذه المدرسة الذين أصبحوا رموزاً:

أ- **مجاهد بن جبر** المتوفى سنة ١٠١ هـ، وهو أوثق تلاميذ ابن عباس، وقد اعتبر الإمام البخاري والشافعي تفسيره حجة، قال النووي رحمه الله: (إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به). بيد أن الرواية عن هذا الإمام قليلة، ويرى بعض العلماء أن مجاهد كان يسأل أهل الكتاب، فيتريث في أخذ أقواله المنسوبة إليهم.

ب- **عطاء بن أبي رباح** المتوفى سنة ١١٤ هـ، وقد شهد له العلماء بعلو كعبه في هذا العلم وبعدالته وتقواه، قال قتادة: (أعلم التابعين أربعة: كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك) . وقال أبو حنيفة: (ما لقيت أحداً أفضل من عطاء).

ت- **ومن التابعين بمكة سعيد بن جبير** المتوفى سنة ٩٥ هـ، وعكرمة مولى ابن عباس المتوفى سنة ١٠٥ هـ، وقد أكثر من التفسير، إذ روى عنه زهاء ثلاثمائة رجل(٣).

ث- **طاووس بن كيسان اليماني** المتوفى سنة ١٠٦ هـ.وتعد هذه المدرسة وتُعدُّ هذه المدرسة أوثق مدارس التفسير، وأكثرها استشهادًا بالشعر في التفسير، لمكانة ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في علم التفسير، يقول ابن تيمية: «وأما التفسير فإن أعلم الناس به أهلُ مكة؛ لأنهم أصحاب ابن عباس» (٤). هذه المدرسة هي اللبنة الأولى في بناء علم التفسير.

---

(١) أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ) ج١، ص١٧.

(٢) ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج١، ص١٧-١٨.

(٣) أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع التُستري، تفسير التستري، جمعها: أبو بكر محمد البلدي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٣هـ) ص٨٤.

(٤) عبد الرحمن بن معاضة الشهري، الشاهد الشعري في تفسير القرآن الكريم: أهميته وأثره، ومناهج المفسرين في الاستشهاد به، (الرياض: مكتبة دار المنهاج، ط١، ١٤٣١هـ) ص٢٩٦.

ثانياً: مدرسة التفسير في زمن التابعين في المدينة المنورة:

المدينة المنورة شهدت تأسيس العديد من المدارس والمعاهد الدينية التي كانت تعلم القرآن، الحديث، الفقه، واللغة العربية. الإسلام حث على طلب العلم وجعل المدينة نقطة محورية لهذه الجهود.

مؤسس مدرسة التفسير في زمن التابعين في المدينة: إن مؤسس وأستاذ هذه المدرسة هما الصحابيان الجليلان: علي ابن أبي طالب، وأبيّ بن كعب، وكان لكبار الصحابة أثر فيها كعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهم، وجل اعتمادهم كان على الرواية. وسميت مدرسة المدينة، فالمدينة كانت دار الإسلام، وقطب رحاه في حياة النبي صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة، وكانت مقر الخلافة الراشدة، : ومن رموز هذه المدرسة:

ومن أشهر التابعين المفسرين فيها:

أ- **أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي** المتوفى سنة ٩٠ هـ، وهو من رواة أبيّ بن كعب. قرأ القرآن على زيد بن ثابت وابن عباس وقد روى عنه الربيع بن أنس.

ب- **محمد بن كعب القرظي** المدني ثم الكوفي سنة ١٢٠هـ، وسعيد بن المسيب (ت٩٤هـ) وعروة بن الزبير (ت٩٤) وسليمان بن يسار (ت١٠٧هـ) رحمهم الله.

ت- **زيد بن أسلم** المتوفى سنة ١٣٦ هـ، وقد أخذ عنه ابنه عبد الرحمن بن زيد ومالك ابن أنس إمام دار الهجرة. وابن شهاب الزهري (ت١٢٤هـ)، وعمر بن عبد العزيز.

وهذه التقسيمات وضعت بناء على الجغرافيا والأماكن، فما دام ابن عباس قد جلس للتدريس والتعليم في مكة فتسمي مدرسته مدرسة مكة وهكذا أبي بن كعب في المدينة وابن مسعود في الكوفة.

وليس في هذه المدارس شيء من التغاير أو التباين إلا في البعد الجغرافي، فالمناهج هي مكملة لبعضها البعض، وليس هناك ما يشير إلى التعارض بينها.

ذلك أن اللغة العربية والشعر الفصيح والحديث النبوي بالإضافة إلى القرآن الحكيم هي المصادر الأساسية لهذه المدارس.

ثانياً: المدارس الشعرية في مكة والمدينة:

- **مدرسة مكة الشعرية:** وتتألف من شعراء لم يكن لهم شأن في الجاهلية، ولكنهم ظهروا عندما اشتد جهاد قريش للنبي، وقويت شخصيتهم، حتى كونوا في مكة سنة شعرية قرشية خاصة، مثلها بعد الإسلام شعراء كعمر بن أبي ربيعة، والعرجي (١). ونحن نعلم مكانة عكاظ، فقد كان من أسواق العرب في الجاهلية، كانت تجتمع فيها القبائل مدة عشرين يوما في شهر ذي القعدة كل

(١) علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، (مكتبة دار التراث، طبعة دار التراث الأول، ١٤١٢هـ/١٩٩١م) ص٢٤٥.

سنة بموضع بين نخلة والطائف، يبعد عن مكة ثلاثة أيام. كان الشعراء يحضرون سوق عكاظ ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر (١).

- **مدرسة المدينة الشعرية:** وتتألف من: أبي قيس بن الأسلت، وقيس بن الخطيم، وحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وعبد الرحمن بن حسان، وسعيد بن عبد الرحمن بن حسان، وشعراء الأنصار في المدينة بعد الإسلام (٢).

ثالثاً: الازدهار الفقهي في مكة المكرمة:

- **مدرسة فقه مكة** واشتهر فيها مذهب ابن عباس الذي دعا له النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «اللهم فقهه في الدين» (٣) وكان من أفقه الصحابة وأعلمهم بتأويل القرآن.

ومن أشهر تلامذته الفقهاء : عكرمة، وعطاء، وطاووس، وسعيد بن جبير، وعنهم أخذ عمرو بن دينار، وابن جريج، وعبد الله بن دينار، وغيرهم. وأخذ عنهم الإمام مالك وغيره.

- **المدينة المنورة:** تميزت المدينة المنورة بعد العصر النبوي بوجود جمهور فقهاء الصحابة، الذين كانوا مرجعاً أساسياً للتعليم والفتوى، واشتهر منهم الخلفاء الأربعة، وكانت لهم مذاهب فقهية مثل: مذهب عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وأبو هريرة، وعائشة بنت أبي بكر، وزيد بن ثابت، وابن عباس، وابن عمر، وابن مسعود، رضي الله عنهم، وغيرهم. وكان لهم اجتهادات، ومذاهب فقهية.

ومع مرور الوقت، وتكامل نضوج فقه الصحابة؛ بدء نقل أقوالهم، وتدوين مذاهبهم، وكان يعتمد عند التعارض على قواعد مثل: تقديم ما توافق عليه جمهور الصحابة، أو بحسب الدليل، وجودة الاستدلال، وغير ذلك.

وأما مذاهب فقه التابعين؛ فهي امتداد لمذاهب الصحابة، في تأسيس مذاهب الفقه الإسلامي، من خلال ظهور المدارس الفقهية، التي كان أشهرها وأكثرها انتشارا:

مدرسة الحجاز في المدينة المنورة، باعتبارها أم المدارس الفقهية، ثم مكة المكرمة (البلد الحرام)، ثم مدرسة الكوفة بالعراق.

---

(١) عن الصحابي عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، أبو العباس (ت ٦٨هـ) – رضي الله عنهما، غريب القرآن من شعر العرب ((مسائل نافع بن الأزرق لعبد الله بن عباس – رضي الله عنه وعن أبيه)) (تاريخ النشر بالشاملة: ١٤٣١هـ) ص٤٨.

(٢) علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، ص٢٤٥.

(٣) الحديث أخرجه البخاري، انظر: ج١، ص٤١. كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء، رقم الحديث: ١٤٣.

تعد المدينة المنورة أول مدرسة للفقه الإسلامي، وكان من أشهر المدارس الفقهية وأكثر المذاهب الفقهية انتشارا فيها مذهب زيد بن ثابت الذي شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه أعلم الصحابة بالفرائض، وبالقرآن.

وممن اشتهر بالأخذ عنه فقهاء المدينة السبعة، مثل : خارجة بن زيد والقاسم بن محمد وسعيد بن المسيب وسالم بن عبد الله بن عمر وغيرهم. وأشهر من أخذ عنهم محمد بن مسلم الزهري وعنه أخذ الإمام مالك بن أنس مؤسس المذهب المالكي.

رابعاً: المدارس القراءاتية:

- **مدرسة المدينة المنورة:** هذه المدرسة ارتبط نشأتها بنزول الوحي على قلب النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، أخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة، عن فاطمة رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أن جبريل كان يعارضه القرآن». «أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل سنة مرة، وإنه قد عارضني به العام مرتين، ولا أرى الأجل إلا قد اقترب، فاتقي الله واصبري، فإني نعم السلف أنا لك» (١).

وكان أول مؤرخ كتب سيرة النبي صلى الله عليه وسلم هو ابن اسحق (ت: ١٥١هـ)، وأول من ضبط علم الأنساب: ابن الكلبي (٢٠٤هـ)، وأهم الكتب التي ألفت في الطبقات وتراجم الرجال، سعد البغدادي (ت٢٠٣هـ)، وأهم كتب المصادر في مجال التاريخ: الطبري (ت: ٣١٠هـ)، وأول من فك رموز الكتابة المصرية القديمة: ابن وحشية (٣١٨هـ)، أهم الكتب المختصة في علم الأنساب: ابن حزم (٤٥٦هـ)، وأشهر الكتب المختصة بالتاريخ الإسلامي لابن الأثير (٦٣٠هـ). وأشهر ما ألف في تراجم الأعلام قديماً وحديثاً للزرِكْلي (ت١٣٩٦هـ).

الجامعات الحديثة: تم تأسيس جامعات تجمع بين العلم الديني والعلم العصري، مثل الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة.

المعلم الثالث: الثقافة والفن:

الفن الإسلامي: الحرمان الشريفان كانا مركزين لتطوير الفن الإسلامي، بما في ذلك الخط العربي والزخرفة.

التراث الثقافي: تقام مهرجانات ومعارض في الحرمين تعرض التراث الإسلامي وتعلم الزوار عن تاريخ وثقافة الإسلام.

(١) البخاري، الصحيح، كتاب الاستئذان، باب من ناجى بين يدي الناس، ومن لم يخبر بسر صاحبه، فإذا مات أخبر به، رقم الحديث: ٦٢٨٥.

الخاتمة ونتائج البحث:

تم استخلاص نتائج للبحث عن حضارة الحرمين الشريفين:

المعلم الأول: المكانة الدينية للحرمين الشريفين:

- **الأهمية الجغرافية والدينية:** تعتبر مكة المكرمة مركزًا روحانيًا رئيسيًا في الإسلام، حيث تضم الكعبة المشرفة التي يشير القرآن الكريم إلى أنها أول بيت وضع للناس. هذه المكانة تعزز من دور مكة كمركز قبلة المسلمين في الصلاة ومركز للحج. بالمقابل، المدينة المنورة، التي تضم المسجد النبوي، تعد موقعًا محوريًا في حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، مما يجعلها مركزًا رئيسيًا لنشر الرسالة الإسلامية.
- **مقارنة بين الحضارات:** الحضارة التي نشأت في الحرمين الشريفين تقوم على أساس القيم الروحية والأخلاقية والعلمية، متمايزة بذلك عن الحضارة الغربية التي كانت مهيمنة عليها الروح المادية. هذا التباين أسهم في تفشي أزمات تاريخية مثل الحربين العالميتين في الغرب.
- **الآيات القرآنية:** يشير القرآن الكريم إلى مكة بأسماء متعددة مثل بكة وأم القرى، مما يعكس مكانتها المركزية وقدسيتها. كما تبرز المدينة المنورة في النصوص القرآنية كموطن للهجرة النبوية وبناء المجتمع الإسلامي.
- **الوظائف الروحية والمعرفية:** مكة تجسد الوحدة والسلام من خلال تجمع المسلمين لأداء فريضة الحج، في حين تمثل المدينة المنورة النموذج التطبيقي لتعاليم الإسلام، مما يعزز مبادئ العدالة والإخاء في المجتمع المسلم.

المعلم الثاني: حضارة الحرمين الشريفين كحضارة الأمن والأمان

- **الأمن كركيزة أساسية:** تدل النصوص القرآنية على أن الحرمين الشريفين يمثلان رمزًا للأمن والطمأنينة، مما يساهم في تعزيز الطاعة والعبادة في هذه المناطق. يشير القرآن إلى أن مكة هي مكان آمن، وهذا الأمن يعزز قدرة الأفراد على الانشغال بالطاعات والعبادات.
- **حفظ الحضارة من الأزمات:** الحفاظ على الأمن الغذائي في الحرمين وتجنب القحط يشكلان عوامل حاسمة في استقرار هذه الحضارة. كما تشير النصوص إلى أن الحرمين قد تم تأمينهما من المخاطر مثل الخسف والمسخ، مما يعزز من استمرارية الأمن والاستقرار في هذه المناطق.

المعلم الثالث: حضارة الحرمين الشريفين كحضارة العلم والمعرفة:

- **المدارس العلمية:** تاريخيًا، كانت مكة والمدينة مراكز علمية بارزة في عصر الصحابة والتابعين، حيث تم تأسيس مدارس تفسيرية وشرعية هامة. مكة تحت إشراف ابن عباس، والمدينة تحت إشراف الصحابيين علي بن أبي طالب وأبيّ بن كعب، أسهمتا في تطوير العلوم الشرعية والتفسير.

- **المدارس التفسيرية**: برزت مكة كمركز رئيسي لتفسير القرآن تحت إشراف ابن عباس، بينما كانت المدينة مركزًا هامًا لتعليم التفسير على يد علي بن أبي طالب وأبيّ بن كعب. وقد أثرت هذه المدارس بشكل كبير في تفسير القرآن الكريم وتعليم العلوم الشرعية.
- **المدارس الشعرية**: تمثل مكة والمدينة بؤرتين هامتين في تطور الشعر العربي في العصر الإسلامي. مكة شهدت ظهور شعراء بارزين خلال فترة جهاد قريش، بينما المدينة كانت موطنًا لشعراء الأنصار بعد الإسلام.
- **الازدهار الفقهي**: شهدت مكة والمدينة تطورًا ملحوظًا في الفقه الإسلامي، حيث نشأت مذاهب فقهية مهمة واستندت إلى أقوال الصحابة والتابعين. مكة اشتهرت بمذهب ابن عباس، بينما المدينة كانت مركزًا رئيسيًا للمذاهب الفقهية مثل مذهب زيد بن ثابت.

المعلم الرابع: الثقافة والفن:

- **الفن الإسلامي**: كان الحرمين الشريفين مركزين رئيسين في تطور الفن الإسلامي، بما في ذلك الخط العربي والزخرفة، مما يعكس الأبعاد الفنية المميزة للحضارة الإسلامية.
- **التراث الثقافي**: تحتضن الحرمين الشريفين مهرجانات ومعارض تسهم في عرض التراث الإسلامي وتعليم الزوار عن تاريخ وثقافة الإسلام، مما يعزز من الوعي الثقافي والروحي لدى الزوار.